(٢١)

الدورة الخالدة
في إنسانية الأحد الصمد

حديث الجمعة

١٠ شعبان ١٣٨٠ هـ - ٢٧ يناير ١٩٦١ م

بسم الله ورسوله.. بسم الرحمة ومظهرها.. باسم الموجود ووجوده.. باسم الوجود وكلماته.. باسم الحق وآياته.. باسم العليم وكتبه.. باسم الله الرحمن الرحيم.. به نستعين، وبه نحيا، وبه نهتدي ونقوم، وبه نخرج ونعود، وبه نبعث ونفنى، وبه نتجدد ونتكاثر، وبه نتفانى ونبقى.

إنها دورة الحياة الخالدة، إنها الدورة الخالدة للإنسان في الإنسان، في أحد الله، في صمد الله، في معروف الله، في موجود الله، لا إليه إلا من كان منه، وليس هناك ما ليس منه. لا إله إلا الله.

إن للإنسان في الله دورة، ينتهي إلى حيث بدأ، ويبدأ من حيث انتهى، دواليك بلا انتهاء، وفى حقيقة الأمر بلا ابتداء. الإنسان لا يعرف من أمره إلا ما قام فيه بوصف أناه، وإذا كان لا يدرى إلا أناه، فهذا يكفيه لأن أناه جماع معناه، حيثما وجد وأينما كان.

إنه في هذه الأرض ومن هذه الأرض يبدأ قياما مدركا له. نشأ من ترابها و احترق تحت حرارة شمسها صلصالا كالفخار، مزجت به حرارة تكيفه، ونار إنضاجه، حرارة ثابتة، عليها تقوم حركته، ومن احتراقه بها تنشأ طاقته، وقدرته ومكنته، فكلما احترق منه جزء، جدده بجديد من الأرض التي هي أصل ذاته، وواصل الحياة، كلما نضج جزء من جلده، من ذاته، من مادته، من صلصاله، من ترابه، بُدل جديدا من جزء يحل محله، في جهاز قيامه، تتجدد أنسجته، وتتهالك في تدبير منتظم، بظاهرها بالحياة، دورة دموية منتظمة، ، قوية سريعة، ملبية مجيبة، تمد الأنسجة المفتقرة بالطاقة، وبالقوة، وبالحياة، وتجتذب الأنسجة المتهالكة في تيارها، وتأخذها إلى الحطمة من كبده، تدفعها إلى مجاري القلب بجهازه ومضخاته القوية الجبارة، فتدفعها في طريق النهر الحي النامي الفياض في جسده ونهيراته وفروعه، وهكذا من مصارف الجسم، ومن أنهار الجسد، وبينهما تدور الحياة، في هذا الكتاب الخالد، في هذا القيام الدائم، في هذا القيام الدائم الباقي المتجدد، إنها كما تتجدد الأنسجة في داخل

الجسم، وكما تتجدد كرات الدم البيضاء والحمراء في داخله، وكما تمر في غرف القلب الأربع، ومضخاته الماصة الكابسة للدماء الفاسدة والدماء النقية، كلاهما يمر بالقلب، وكلاهما يمر بالكبد، يدخل ضعيفا متهالكا، ويخرج قويا نشطا.

إن هذا الذي يقوم في الفرد في داخله، هو بعينه النظام الذي يقوم عليه الجنس في جماعه، بمفرداته، وفي أراضيه، وفي مسالكه إلى هذه الأراضي، وفي مرجعه منها، وفي قيامه على أرضه هذه، وفي قيامه على كل أرض يطأها بقدميه، وفي كل سماء يسبح فيها بلطيفه، كما يتحرك في بقاع الأرض بكثيفه.

إن الذي يقرأ كتاب نفسه، إن الذي يقرأ ما في نفسه، إن الذي يتأمل في نفسه، إن الذي يبصر نفسه، إن الذي يرد الطرف إلى نفسه، إن الذي ينعكس إلى نفسه يقرأ كتاب الله. وإذا قرأ كتاب الله في نفسه فقد قرأ كتاب الكون هو فيه، وهو منه، وهو إليه، منه يبدأ جزءا، وفيه ينمو أجزاءً، وعلى مثاله يتواجد كلا، ومن كله يرتد إلى نفسه فيرعى أجزاء نفسه، وأبعاض نفسه، كما روعي من قبل، وكما تولي من قبل، وكما كان من قبل.

إنها دورة الحياة الظاهرة في بيوتكم في أسركم، تبدأون أطفالا لا حول لكم ولا قوة، ترعاكم الأمومة والأبوة، وتسهر عليكم، وتتواد بينها بالتواد إليكم، وبالمودة تنشئونها بين أبويكم. إن اتحادهما في الهدف من رعايتكم يجعل لهما هدفا مشتركا به تتوثق المودة بينهما، ويزول من بينهما ما قد يكون من فوارق في المعدن تنتج خصاما، أو تثير بينهما غبارا وكلاما، وقد أصبحتم حديثهما وغايتهما، فتتوثق الروابط بينهما بقيام الروابط معكم، فتتوحد وتجبر أجزاء الأسرة في أصولها بتواجد أبنائها، فتتكون في الأسرة معاني الوحدة القائمة من المحبة، ويمضي الأب والأم، وينمو الابن فإذا هو أب، وإذا به له زوج، وإذا بهما لهما ولد يرعيانه ويطمعان أن يقومانه...

وهكذا تذهب الحياة في قابلها على ما هي في حاضرها، وهكذا تأتي الحياة لحاضرها على ما كان في ماضيها في دورة سرمدية لا تتوقف، ولا تنتهي، ولا تنقطع، ولا تدوم.. لا تدوم لأبعاضها، ولكن تدوم في كلها، تدوم بكلياتها. إن مصر التي وطأتها أقدام الفراعنة، ما زالت تطأها أقدام أبنائها من حكامها، ومن شعبها، من الآباء والأمهات ومن الأبناء.

هذه هي الدورة الخالدة، تدورها البشرية بلا انقطاع. إذا عرفتم أن هذه الدورة لها الخلود والدوام، وأنها بلا بداية تعرف، وأنها بلا نهاية تدرك، وعرفتم أن كل ما جاءكم به الدين إنما هو وصف لهذه الدورة الخالدة، إنه إذا تحدث إليكم عن آدم يأتي من سماء أو من أرض أخرى أو من جنة، وإذا تحدث إليكم عن آدم أَنْبَتَه من هذه الأرض وأخرجه منها ثم أولجه فيها ويُخرجه منها تارة أخرى ويعرج

به في السماء، ويوفيه العطاء، ويعيده على ما بدأه، يُنشئه نشأة أخرى، يحييه ويميته، يخلقه ويحققه، يبدأه ويعيده، إنها دورة لا تنقطع ولا تنتهي، يبدأ ابنا وينتهي أبا، ثم يعود الأب ولدا وينتهي أبا ويعود ولدا وينتهي أبا.. وهكذا في دورة خالدة تُسميها دورة آدم، يدورها كل ألف عام أو تزيد.

وهذه الدورة إنما هي معنى لكل وليد، أنبتته الأرض أو توالده الناس، وما إنبات الأرض له إلا توالد الناس له، توالد الناس به، فكلما عاد عائد من سماء إلى الأرض، ما عاد إلا إلى أعماق الأرض، وما وجد على الأرض إلا نباتا من نبات الأرض، وما أنبتته الأرض إلا بتوالد الناس. إن الناس لن يخرجوا من الأرض كما تخرج أشجارها، إن الحيوان لا يخرج من الأرض كما تخرج زروعها، إن البشر لا يخرج من الأرض كما يخرج نباتها. ولكن البشر الذي يحيا على هذه الأرض بروح من روح الله ومن روح الوجود وينمو في ذاته من ثمرات الأرض، من أطوار الأرض، في تطور ترابها إلى أشجار، فحيوان، فإنسان.. إن هذا الذي تشهدون له الدوام، إن الذي تشهدون في قيامكم له الدوام في قيامه بقوانين الله، فإذا أردتم أن تعرفوه فقد بعثت الأرض حية من مماتها بقيام الناس عليها، تطورت إلى الناس، قامت قيامتها، من ترابيتها بقيام الناس أحياء من ترابها، يدبون بأقدامهم عليها، ويمشون في أرجائها يعمرونها ويُعمرونها ويزينونها إذا ما تزينت، ويجددونها إذا ما تجددت.. إن هذا هو بعثها وقيامها...

وإن الناس وهم يتواجدون عليها في دورة منتظمة، منها يخرجون، وإليها يعودون، السماء ذات الرجع، تُرجعهم إليها، فهم عليها من أهل السماء، أنبتتهم الأرض فقد ردتهم السماء، مع ضوء الشمس وحرارتها إلى أعماق الأرض، وانعكست الأرض بهم، بردها لما تكتسب من حرارة الشمس وضوئها، والأرض بذلك تنبتهم مرة أخرى، رجع السماء إليها، فالناس على هذه الأرض، إنما هم رجع السماء، ونبات الأرض. إنهم أبناء السماء رجعا، وأبناء الأرض نباتا، في دورة منتظمة لا تنقطع أبدا. فمن خرج من الأرض بجديد كسب دخل السماء بيته من سابق بأثواب جديدة، ومن أفاد من السماء، وأرجعته إلى الأرض فأنبتته الأرض، ظهر عليها بكسب السماء، وبأثوابه الجديدة بكسبه من السماء، في بيئته من الأرض، التي عرفها، والتي عرفته على مستوى له معروفا عنده، ومعروفا عند قومه، وهكذا يُرفع الناس طبقا فوق طبق، وهكذا يرجع الناس إلى الأرض طبقا بعد طبق.

هذه هي الحياة، أرادت الأديان أن تُعرفنا الحياة، وأراد الأنبياء أن يحملوا خبر الحياة، وأراد الرسل أن يأموا الناس إلى أحواض الحياة، حتى تمت النبوة، وتواجد العبد، فأراد عباد الله أن يكشفوا للناس معاني الحياة، في أنفس الناس، بما يتواجدون به من الحياة بينهم في أنفسهم. وبذلك كانت العبودية

لله نهاية النبوة والأنبياء عن الله، ونهاية الرسالة والقيادة إلى الله، فما أخذ الأنبياء ما أخذوا إلا من عباد الله، ومن يد عباد الله، وما عرفوا فيما عرفوا إلا بعضا مما يصح أن يعرف العبد عن ربه، في معرفته عن نفسه، على تفاوت بينهم في المعارف والأقدار، وعلى تقارب بينهم لكسب معاني العبودية لأنفسهم والصلة بعباد لله...

فإذا كان محمد عليه السلام والصلوات خاتم النبيين، فهذا بعثه بحاضره، من قيامه يوم حمل البلاغ، فلما استوفى وتوفى فقام العبد من الله، كان أول العابدين. إن الله إذ يجعل منه عبدا أول عباد، ارتفع به، من نبي خاتم نبيين إلى عبد أول عابدين، وهكذا فعل لآدم في قديم. إن الله لم يحط بخاتم النبيين ولم يَحُط خاتم النبيين إلى وصف العبد بجعله أول عابدين، ولكن ارتفع بخاتم النبيين، ليكون عبدا، فيكون أول عابدين.

وإذا كان محمد يدب على الأرض أول عابدين، فقد دب عليها الحق في عبده، في جلباب خلقه، {والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم}[1] {لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون}[2] يا أيها الحق مني، يا عبدي، يا قدمي، يا يدي ووجهي، قل جاء الحق وزهق الباطل.

فيمَ يتساءلون؟ أعن الساعة التي علَّمت؟ أم عن القيامة التي أقمت وبشرت؟ إلى ربك منتهاها وأنت بينهم معناها، أنت لهم في أنفسهم ذكراها إذا تابعوك، إذا أحبوك، إذا طلبوك، إذا عشقوك، إذا نصروك، إذا على أنفسهم أقاموك، إذا هم في السويداء من قلوبهم أحلوك، إذا هم أماتوا أنفسهم وأبقوك، فكانوك، وإذا كانوك، كانوني. أنت مبتداها...

إذا طلبوك طلبوني، إذا عرفوك عرفوني، إذا وحدوك وحدوني، إذا كانوك كانوني، ألم تكن رسولي إليك فكنته فكنتني؟ هكذا يكون من يكونني. هكذا يكون التوحيد لمن يوحدني. هكذا تكون المعرفة لمن يعرفني. هكذا يكون الطلب لمن يطلبني، وإلا فلا طلب لي، ولا توحد معي.

أنت عبدي.. أنت حقي.. أنت عيني.. أنت روحي.. أنت حياتي.. أنت وجودي.. من رضيك رضيني، ومن قلاك قلاني، ومن ظاهرك ظاهرني، ومن جافاك جافاني، حافظوا على الصلاة الوسطى، إن الله وملائكته يصلون على النفس الوسطى. إن الله وملائكته يصلون على هذا النبي الوسيط. إن الله وملائكته يصلون على هذا العبد صلاة دائمة بدوام الله وملائكته. إن الله وملائكته صلى عليه قديما في قديمه ذكرا قديما له، ويصلي عليه في جديده ما قام جديده، ما بُعث جديده، ما تواجد بينكم جديده، ولن ينقطع فيكم جديده، لأنه لن يقطع فيكم وليده، أعطيناه الكوثر، أعطيناه

التكاثر، شانئه أبتر، وواصله أزهر. إنه الكلمة الطيبة، إنه الشجرة الطيبة، إنه الأصل الثابت، إنه الفرع المرتفع في السماء والجذر الممتد في الأرض، يلجه الله في الأرض على دوام، ويرفعه في السماء على دوام، ويمده بالحياة على قيام، في عالم القيام آدم قيام، لا ينقطع قيامه، إنه عبد الله.. إنه إنسان الله.. إنه حق الله.. إنه وجه الله.. إنه يد الله.. إنه كتاب الله.. إنه سرمد الله...

فكيف بعد هذا تطلبون أنبياء من بعده وهو بينكم مقيم؟ وهو فيكم يبعث؟ وهو فيكم يمتد؟ وهو فيكم ينتشر بنوره؟ وهو فيكم يبعث من قبوره من قبور أنفسكم؟ جعل الله له نورا يمشي به في الناس، فكيف ينقطع من كان من النور، ومن قام بالنور، ومن انتشر بالنور؟ كيف يتغلب الظلام على النور؟ إنه نور السموات والأرض، أرسله الله رحمة للعالمين. إنه قبضة نور الله، بها أشرقت السموات والأرض، فكانت نور السموات والأرض من الله، الله الذي لا تحده السموات والأرض، ولا تتسع له السموات ولا الأرض، فكيف يكون الله نور السموات والأرض؟! وما قال لكم الله نور السموات والأرض إلا ليعرفكم عن عبد له هو نور السموات والأرض، أنتم فيه، وهو فيكم، مثله بينكم في معناكم كمشكاة فيها مصباح من تجويف صدر حوى قلبًا. به قام الحق وامتد الحق وزهق الباطل وانتهي طور الخبر والإخبار وقام العيان والإكبار.

هذا هو رسول الله.. هذا هو جانب من جوانب رسول الله.. هذه هي زاوية من زوايا رسول الله.. هذا هو فهم من فهوم في رسول الله.. فهل آمن الناس برسول الله؟ لو آمن الناس بالله لآمنوا برسول الله، ولو دخل الناس بيت رسول الله لتكشفت لهم صلتهم بالله، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله}[٣] إن الله يطلب من المؤمن به أن يؤمن برسوله. إن من آمن بالله - والإيمان بالله لا يحتاج إلى كتاب- فكتابه أنت، ولا يحتاج إلى رسول فرسوله ضميرك، ولا يحتاج إلى إمام فإمامه عقلك، ولا يحتاج إلى تحذير من شيطان فشيطانه نفسك، ولا يحتاج إلى بشرى بجنان فجنانه رضاؤك، ولا يحتاج إلى ترهيب من نار فناره قلقك وحيرتك. إن الله إذا عرفت، إن الله إذا طلبت، إن الله إذا وجدت يأمرك ويناديك أن آمن برسولي.. ابحث بين الناس عمن تريد أن تكون على دينه، ابحث بين الناس عمن يكون مرآة لك ترى فيها - بصفائها - وجهك أنت، فتعرف ما فيك مما تريد أن تحتفظ به وتبقيه، ومما تريد أن لا تحتفظ به فتزيله وتغيره. إنك منفردا لا ترى وجهك، إنك لا ترى معناك، إنك لا ترى عملك، إنك لا ترى شيئا مما يصح أن ترى لتعرف، وإذا عرفت لتكون، وإذا كنت لتزداد، وإذا ازددت لتبعث، وإذا بعثت لتنشر، وإذا انتشرت لترفع وترتقي، وتدخل في الدورة الخالدة، تدخل في دورة الحياة، تدخل في دورة آدم، تدخل في دورة الإنسان، تدخل في

دورة الوجود، تدخل في دورة التواجد بوجود نفسك، من عمل نفسك، بإرادة نفسك، على ما يرضيك أنت، وعلى ما تشتهي أنت، وعلى ما تطلب أنت، وعلى ما ترى وتعرف أنت.

إن الله غني عن العالمين. إن الله لا تنفعه طاعة ولكنها تنفعك. إن الله لا تضره معصية ولكنها تضرك. إن الله ليس له دار ولكن الدار دارك، وما خلقت إلا لك. إن الله ليس له سماء فلا تحده سماء، ولا تحتفظ به سماء، ولكن خلقت السماء لك مرتقاك ومعراجك، وسلمك، خلقت من أجلك، وخلقت لك. أنت لك سماء، أنت صاحب السماء، أنت عين السماء، أما هو فلا. أنت صاحب الأرض، أنت الأرض، أنت الدار، أما هو فلا. إنها لا تتسع له، أما أنت معه، أما أنت له، أما إذا عبدت نفسك لمعناك فيك ومعناك منه، فإنما تعبد نفسك بجديدك، لمعناك وعينك في كمال قديمك، فتعبد نفسك لله إنسان أحسن تقويم منه نشأت.

إنك إذا كنت عبدا لعبد لله،كنت عبدا لله، وإذا كنت رسولا لرسول الله، كنت رسولا لله، وإذا كنت عضوا أو جارحة في إنسان، أو عبد لله، فأنت عضو وجارحة لله. هكذا يكون مآلك، وهكذا هي اليوم حالك، فإذا لم تعرف اليوم حالك فكيف يكون في الله لك مآل؟ وكيف يكون لك في الله مجال؟ وكيف تنطق بلا إله إلا الله؟ قولا يقال، ولا تمتد يدك إلى لا إله إلا الله شيئا ينال؟ لِمَ لا تمشي بقدميك في لا إله إلا الله! ولِمَ لا يقوم ضميرك بلا إله إلا الله! لِمَ لا يشرق عقلك بلا إله إلا الله! فإنه لا يستقيم فعلك إلا بلا إله إلا الله، لا شيء من هذا ثم تقول إنك من أهل لا إله إلا الله! أفلا تعقل؟

أما آن لك أن تستيقظ من منامك، والناس نيام! أما آن لك أن تقطع ما بين حاضرك وبعث ماضيك، فتموت من شجرة الغفلة لتزرع في شجرة اليقظة! وأنت قد ولدت على الفطرة، فلِمَ الحنين لقديمك من الغفلة والجهل! لِمَ لا تكون ابن يومك وابن حاضرك، وابن وقتك وابن ساعتك، وابن عملك وابن فهمك!

هكذا الدين، هكذا تدور الدورة الخالدة، من ركب السفينة فسارت به في الدورة الخالدة، فقد سار دورة في الدورة الخالدة، ومن كان للناس سفينة في الدورة الخالدة دار دورة أخرى في الدورة الخالدة، فكن سفينة أو كن راكبا لسفينة، كونوا سفنا أو كونوا ركابا لسفن، ادخلوا الحياة فقد ولدتم بالفطرة وفي الفطرة في قيامكم اليوم في الحياة. وفي الحياة لا تمتنع عليكم الحياة ولكنكم - للأسف - تمنعونها، ولا تغيب عنكم أحواض الحياة ولكنكم - يا للحسرة - لا تردونها، وتمر أمام أعينكم دون انقطاع سفن الحياة ولكنكم - للخيبة - لا تركبونها.

إنْ الله طلبتم هو الحياة، فإذا فقدتم الحياة فقدتموه، وإن ربحتم الحياة ربحتموه، وإن تواجدت فيكم الحياة، تواجد فيكم الله، فأحياكم وأحيا بالحياة ظاهرا بكم. إنه الحي القيوم، إنه لا يحيا لأنه الحي ولكنه لا يظهر لأنه الغني، إنه الغني الذي يظهر في المفتقرين، إنه القوي الذي يظهر في المستضعفين، إنه القادر الذي يظهر في المتوكلين، إنه الكبير الذي يظهر في المتفانين، إنه الحياة تظهر في الميتين، إنه بعث الأموات بالحياة في قلوب المستيقظين، إنه قيام الحياة في الأرض الميتة تهتز بالحياة، وتترنم بالحياة، وتغني أناشيد الحياة، إنه الأحياء إذا قاموا من موت، إنه المبعوثين إذا عادوا من غفلة، إنه المستيقظين إذا صحوا من نوم، إنه أقرب إليكم من حبل الوريد، إنه معكم أينما كنتم، إنه القائم على كل نفس بما كسبت، لا إله غيره، ولا موجود غيره، ولا حق غيره، ولا دوام لغيره، ولا حياة بغيره.

فهلا آمنتم به لا إله إلا الله فشاهدتموه لا إله إلا الله، فقمتموه لا إله إلا الله، فتعاليتم لا إله إلا الله، وتدانيتم لا إله إلا الله، وانتشرتم لا إله إلا الله، فكنتم أمة لا إله إلا الله، وكنتم قيام محمد رسول الله. إن محمدا كان أمة، ملة إبراهيم حنيفا، كان أمة قانتا لله. لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

اللهم أنطقنا لا إله إلا الله، وأعلمنا لا إله إلا الله، وأشهدنا لا إله إلا الله، وقمنا لا إله إلا الله، وأرجعنا إليك لا إله إلا الله.

اللهم أنزل سكينتك على قلوبنا والسلم والسلام على أرضنا. اللهم جنبنا الفرقة والخصام وارزقنا الألفة والوئام. اللهم أدخلنا في سلامك وفي سلمك، وكن لنا السلام، واجعلنا لك السلام يا سلام، لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين. اللهم ارفع عنا من البلاء ما نعلم وما لا نعلم وما أنت به أعلم إنك أنت الأعز الأكرم. اللهم ارعنا حكاما ومحكومين. اللهم ولِ أمورنا خيارنا ولا تولِ أمورنا شرارنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وعاملنا بعفوك ومغفرتك ورحمتك، وأقلنا من إقامة عدلك، وعاملنا بما أنت له أهل، وعافنا مما نحن له أهل. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

أضواء على الطريق

(لقد جاءكم العلم منذ سنين كثيرة عن طريق إنسان عرف القانون. بيَّن لكم أنه إذا ما جربه أحدكم جاءت النتائج دائما على ما عرَّفه. فإذا ما سمحتم للقانون أن يعمل كان حتما على النتائج أن تأتي).

(كما علمكم قانونا آخر أذكركم به.. لا يمكنكم الحصول على شيء في عالم المادة دون أن تدفعوا الثمن.. فكذلك أمر المعرفة وقيام الوساطة. إذا شغلكم تجميع المادة فإنكم قد تتخمون بطيبات عالمكم ولكنكم ستكونون فقراء جدا في عالمي).

(إذا سألتم أيا من الذين يعودون إليكم من لدينا ستجدونهم جميعا يقولون إن القانون صحيح، وإنهم لا يرغبون أبدا في العودة إلى عالم المادة. أنتم تبحثون عن السلام في خارج أنفسكم، وأنا أحاول أن أريكم السلام الأبدي في داخلها. إن الثروة إنما هي ثروة الروح).

عن هدي السيد الروح المرشد سلفر برش

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة محمد - ٢

٢ سورة الأنعام - ١٥٤

٣ سورة الحديد - ٢٨